كيف تتجلى

قدرة الله فى بديع صنعه

وتتراءى وحدانيته فى وحدة خلقه

إعجاز القرآن فى آيات من سورة الواقعة

أ.د/ سلامه عبد الهادى (*)

نقف فى هذا البحث أمام آيات من القرآن الكريم تبين إعجاز القرآن فى وضع الحجة على تكامل الخلق فى وحدة واحدة، حيث تأتى الآيات من سورة الواقعة لتثبت بالمنطق العلمى وحدة الخلق فى كيان واحد ببراهين وكلمات معجزة، يثبت بها الحق أن خلق الإنسان جاء متكاملا مع خلق النبات الذى يمنحه الغذاء و خلق الماء الذى يرويه و خلق أوراق الشجر التى تمنحه الطاقة فى وحدة واحدة دبرها خالق واحد، حيث تبدأ الآيات الكريمة بتحديد هدف البحث بقوله سبحانه و تعالىٰ: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) ﴾، إنه تعجب يعتمد على إثارة الحقائق فينا بدلا من أن يضعها فى شكل تقريرى ، كى نتابع أن الحكمة ليست فى خلق الإنسان فقط، و لكن فى تدبير غذائه و شرابه و مصدر طاقته، و يناقش البحث أركان هذا التكامل و هذه الوحدة و التى جاءت على هيئة استفسارات، تبدأ بقول الحق: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) ﴾، كاستفسار يعقبه سؤال، استفسار تتأتى إجابته بالرؤية المتفحصة و المتدبرة فيما نمنيه، و كيف تحققت هذه الرؤية فى العصر الحديث تحت مجهر يسمى المجهر الإلكترونى حيث استطعنا أن نرى تركيب الحيوان المنوى والخلية الحية عندما يصل التكبير إلى مليارات المرات، وكيف أن هذه

* - عميد معهد الطاقة بأسوان.

الخلية تقوم بتوريث الصفات التى تنتقل من الآباء إلى الأبناء كدليل على عظمة الخالق و وحدانيته، وكيف تنص الآية الكريمة فى هذه الخلايا التى نمنيها حيث تمثل نصف من الخلية له نواة تحتوى على عددا من الإنشاءات يصل عددها إلى ٢٣ منشأ تسمى "كروموزومات" والتى تعد سجلا كاملا للمواصفات البشرية وكذلك صفات السلالة التى ينتمى إليها الإنسان بدءا من آدم وحتى آخر الأجيال، وكيف تعمل قوانين الوراثة التى تمتلئ بها المجلدات، وكيف تتضاعف هذه الخلية الأولى،و يخرج منها ملايين و بلايين من الخلايا المتماثلة جميعا فى تكوينها وكروموزوماتها وجيناتها، ولكن كل خلية لها وظيفتها و عملها، وكل نسيج يتكامل مع الأنسجة الأخرى لتكوين الأعضاء والأجهزة التى تتكامل لإعطاء الجسم البشرى قدراته على الحركة والاستمتاع بالحياة، وكيف يتم هذا من خلال برامج علمية متكاملة ووفقا لمعايير وقوانين ما زال العلماء يعكفون عليها، حيث لا نستطيع أن نخلق منى مثل هذا أو نقول أنه قد جاء بغير خالق بحيث يؤدى كل هذه الأدوار و يحتفظ بكل هذه المواصفات والصفات ويسير على هذه القواعد... إن الرجل فى جماعه فى كل مرة يقذف أكثر من بليون خلية حية... أى يمكنه تخصيب عدداً من البويضات يعادل عدد سكان الصين أو الهند... أى دقة فى خلق هذا المنى وفى الإشارة إليه بهذا القول السديد والكامل و المعجز... هل لدينا أى فضل فى هذا الخلق وهذه القوانين التى يعمل بها حتى نرد بالنفى على هذا السؤال الربانى: ﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) ﴾ .

ثم يتناول البحث السؤال التالى الذى جاء فى قول الحق: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾، وكيف يضيف أن الإنسان رغم عقله وتدبره واعتقاده بأنه سيد هذا الكون يعجز أن يعد لنفسه طعاما من الأرض بدون هذا الزرع، فليس هو الذى علم البذور أن تأخذ بعض العناصر أو الأملاح من الأرض و يسر لها الماء لتذيب هذه الأملاح لتعد له حاجته للنمو، فلا فضل للإنسان فى كل هذا

ودوره يقتصر على إلقاء البذور أثناء حرث الأرض وتقليبها، وتظل البذور هكذا ساكنة، ثم تنمو جميعها فى توقيت واحد فتخترق بزرعها سطح الأرض مرتفعة فى السماء وبجذورها باطن الأرض متغلغلة فى أجوافها وكأنها جميعا على موعد لتقدم للإنسان الخير والغذاء، فمن أودع فى هذه البذور أو الحبوب تلك القدرة العجيبة فى تحديد الوقت والتعامل مع الزمان، ويناقش البحث أن كل زراعة تعد مصنعا كاملا يؤدى أدوارا رائعة رسمت بإتقان وبتدبير خالق الإنسان سبحانه وتعالىٰ الذى يعلم ما يحتاجه لكى يحيا، وأن ما نراه فى هذا النبات من جذور يندفع الماء إليها مذيبا من الأرض بعض العناصر والأملاح التى يحتاجها كل زرع ليعد ما ينتجه، ثم كيف يتم دخول هذا الماء إلى جذور النبات بقانون إلهى يسمى قانون الضغط الاسموزى نتيجة لاختلاف نسبة تركيز بعض العناصر داخل جذور النبات عن نسبتها فى الأرض فتمتص ما رتبه الخالق لها من أملاح وعناصر، ثم كيف تصعد المياه حاملة أملاحها إلى سيقان النبات التى تمتد إلى الهواء، وترتفع المياه فى السيقان داخل أنابيب ضيقة شقها الخالق بحكمته داخل هذه السيقان، ثم كيف يصعد الماء فى هذه الأنابيب الضيقة عكس اتجاه الجاذبية الأرضية بقانون آخر يُسمى قانون الأنابيب الشعرية، ثم كيف تصل المياه إلى فروع النبات الذى يصنع ما يقدمه لنا من ثمار فيها كل ما نبتغيه من وجبات، ويناقش البحث سن هذه القوانين وضبط هذا التركيز وإعداد هذه الإنشاءات بحيث تمتد الجذور لتثبته فى الأرض فتصعد بسيقانه فى الهواء حاملة الفروع والأوراق والثمار.

ثم يناقش البحث تكامل الخلق فى وحدة واحدة بتدبير الخالق هذا الماء الذى يعد عماد الحياة على الأرض بهذا السؤال الثالث فى هذه الآيات و الذى جاء بقول الحق:

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾، وكيف أنها إشارة إلى الماء الذى هو سر من أسرار الحياة كما يقر العلم

الحديث ، فبدون الماء لن يكون هناك أثرا للحياة على الأرض ، ويناقش البحث كيف يأتى الماء إلينا إعجاز الحق فى كلمة "المزن" .

ثم يناقش البحث تكامل خلق الإنسان على الأرض ليتحرك ويسعى ، فسعيه وحركته فى حاجة إلى طاقة ، مثل محرك السيارة الذى لن يتمكن من الحركة دون مصدر للطاقة وهو الوقود الذى يحترق داخل السيارة لتسير . فنرى أن الخالق الذى خلق الإنسان دبر له مصدرا يستمد منه طاقته ، قد سخر له الشمس لتحترق وترسل أشعتها إلى النبات ليختزنها ثم ليحولها إلى طاقة تنطلق فى أجسامنا عندما نتغذى على ثمار هذا النبات باحتراق يتوارى عن أعيننا وبالقدر الذى نحتاجه للحركة وبآليات تعجز العقول عن فهمها ، فلولا الشمس ولولا النبات ولولا وحدة وحكمة الخالق ما كان للإنسان من سبيل إلى الحركة والسعى والاستمتاع بقوة عضلاته فى الجهاد والسيطرة على الكون من حوله ، ويناقش البحث أنه ولا الشجرة التى تختزن طاقة الشمس بعملية تعد من أعقد العمليات تسمى عملية التمثيل الكلوروفيللى حيث يقوم ورق الشجر الأخضر أثناء هذه العملية بتكوين المواد النشوية أو الكربوهيدراتية التى تمثل وقودا هيدروكربونيا مثل البترول ، حيث يمتص الورق الأخضر أشعة الشمس و ثانى أكسيد الكربون من الجو والماء من جذور النبات ، ومنها جميعا تتوفر لنا مصادر طاقتنا عندما نأكل ثمار هذه الأشجار فتحترق المواد النشوية التى تحوى طاقة الشمس داخل خلايا أجسامنا البشرية . كى تنطلق هذه الطاقة فى احتراق متوار كما تشير الآية الكريمة بهذا الوصف الكامل النار التى تورون حيث يستخدم الجسم فى هذا الاحتراق الأكسيجين الذى يحمله الدم من الرئة إلى الخلايا ، و تعد عملية احتراق المواد الكربوهيدراتية داخل الخلايا من أعقد العمليات التى يَحار العقل البشرى فى فهمها والتى تحتاج إلى مجلدات لسرد تفاعلاتها . . . ولكنه احتراق كأى احتراق يستخدم فيه أكسيجين الهواء وينتج عنه

الطاقة وثانى أكسيد الكربون وبخار الماء... و بهذه الطاقة تتمكن خلايا الجسم من أداء وظائفها ويتمكن الإنسان من الحركة والاستمتاع بحياته وعضلاته وقوته... هل للإنسان فضل فى هذه الشجرة التى صنعت للإنسان حاجته من الطاقة ليحيا .. وهل يعى الإنسان ما بداخله من نيران تتوارى عن العيون كتلك التى تنطلق داخل محرك السيارة؟

هكذا يوضح البحث وحدة الخلق فى هذا التكامل الذى لا يمكن أن يحققه سوى خالق واحد بدأ بهذا السؤال الذى لا جواب له سوى أننا نصدق أننا مخلوقون بأيدى خالق واحد: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

القرآن الكريم هو كتاب الله الذى جاء نورا و هداية بما يواكب عصرا تتقدم فيه العلوم وتزدهر... جاء ليؤكد ما تكتشفه هذه العلوم أن الكون إنما انتظم بالحق لخالقه ومدبر أمره... جاء بمنطق علمى فريد ليقرر أن ما نراه وتدركه أبصارنا وعقولنا وعلومنا هو الشاهد على أنه "لا إله إلا الله"... جاء هذا فى القرآن لكريم بما يعجز أن يأتى بمثله البشر و لو اجتمعوا له.

تعالوا نتدبر الآيات من الآية ٥٧ إلى الآية ٧٥ فى سورة الواقعة، وتقدم هذه الآيات أروع منهج بحثى يثبت لنا أننا مخلوقون وأن وجودنا واستمرار حياتنا يعتمد على إرادة خالق واحد أحد وهب الحياة وأوجد مقوماتها وعناصر استمرارها، وكما أحكم الله صنعته فقد أحكم آياته التى أرسلها إلينا لتدلنا عليه وعلى وحدانيته، كما ترشدنا هذه الآيات إلى أن حياتنا ورزقنا وطعامنا وشرابنا وقوتنا من تدبيره ورحمته، وأن حرماننا من كل هذا فى قدرته ورهن مشيئته، وهذا بإشارات علميه تعرضها هذه الآيات فى سهولة ويسر، وسنحاول أن نتدبر هذه الإشارات بما يسره لنا الخالق من علم فى عصرنا هذا.

تبدأ الآيات الكريمة بتحديد هدف البحث بقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ إنه تعجب يعتمد على إثارة الحقائق فينا بدلا من أن يضعها فى شكل تقريرى، وهذا ما تتبعه المدارس التربوية الحديثة فى شرح الحقائق... فهو تعجب ممن لا يصدق أننا مخلوقون وأن لنا خالقا هو منزل هذا القرآن هداية منه ورحمة ، ثم تأتى الآيات التالية لتضع من لا يصدق أمام الحقائق المؤكدة لهذا بكل بيان لنقر بأنفسنا صدق هذا القول... ويأتى عرض هذه الحقائق بحسب ترتيبها المنطقى وأهميتها معتمدة على الرؤية العلمية والعملية التى تزداد وضوحا يوما بعد يوم... ولهذا تبدأ كل آية وكل برهان أو استفسار بكلمة ﴿ أَفَرَأَيْتُم ﴾... استفسار من الخالق يهدينا إلى صدق القول ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ .

يأتى أول استفسار بقول الحق ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾... استفسار يشير إلى عجائب الحيوان المنوى الذى يقذفه الرجل لإلى الرأنة عند الجماع.

تعالوا نتدبر هذه الإشارة فى هذه الآية..

يعقبه سؤال... استفسار تتأتى إجابته بالرؤية المتفحصة والمتدبرة فيما نمنيه... وقد تحققت هذه الرؤية فى العصر الحديث تحت مجهر يسمى المجهر الإلكترونى، حيث استطعنا أن نرى تركيب الحيوان المنوى والخلية الحية عندما يصل التكبير إلى مليارات المرات، إن هذا المنى يعد جزءا من خلية حية تؤدى دورا هاما فى حياة البشر وحياة كل المخلوقات، فهى المسئولة عن حفظ وبقاء النوع البشرى وكل الأنواع التى خلقها الله الواحد الأحد... فهى خلية تقوم بتوريث الصفات التى تنتقل من الآباء إلى الأبناء... إنها دليلا على عظمة الخالق ووحدانيته، و هى كخلية من خلايا الجسم تعد آية من آيات الإعجاز فى تركيبها وتكوينها ووظائفها وتنفسها

وغذائها وتكاثرها وانقسامها، يعجز الإنسان عن تخيل خلية واحدة بهذا الحجم تقوم بكل هذه الوظائف... فكيف بخلقها... وهذه الخلية التى يمنيها الرجل أو تمنيها المرأة لها أيضا دورا متميزا عن أية خلية أخرى... فهى تتكاثر وتنقسم بقوانين محددة بعد استكمال جزئيها عند اتحاد ما يمنيه الذكر (نصف خلية) مع ما تمنيه المرأة (نصف الخلية الآخر) داخل رحم المرأة... وعند تدقيق الرؤية كما تنص الآية الكريمة فى هذه الخلايا التى تمنيها، فسنجد أن هذا النصف من الخلية له نواة تحتوى على عددا من الإنشاءات يصل عددها إلى ٢٣ منشأ تسمى "كروموزومات" وتحتوى هذه الكروموزومات على جينات تعد سجلا كاملا للمواصفات البشرية وكذلك صفات السلالة التى ينتمى إليها الإنسان بدءا من آدم وحتى آخر الأجيال... وهناك شكلا خاصا للكروموزوم الثالث والعشرين يكون على شكلين x و y ، كذلك فإن البويضة التى تمنيها المرأة أيضا تحتوى على نفس هذا التكوين ولها نواة بنفس العدد من الكروموزومات وكروموزوم يكون على شكل y ، وعند التخصيب يتحد منى الرجل مع منى المرأة ليكونا خلية كاملة تحتوى نواتها على ٤٦ كروموزوم مثل باقى خلايا الجسم البشرى وبها خواص وراثية جاءت من الرجل والمرأة أو الزوج والزوجة وفق قوانين الوراثة التى تمتلئ بها المجلدات، و يكون المولود ذكرا إذا أخذ من منى الرجل الكروموزوم x و يكون أنثى إذا أخذ من الرجل الكروموزوم y، فخلايا الأنثى بها الكرموزومين المتشابهين y + y وخلايا الذكر بهما الكروموزومين المختلفين y + x ثم تتكاثر وتتوالد هذه الخلية الأولى، ويخرج منها ملايين و بلايين من الخلايا المتماثلة جميعا فى تكوينها وكروموزوماتها وجيناتها، ولكن كل خلية لها وظيفتها وعملها، وكل نسيج يتكامل مع الأنسجة الأخرى لتكوين الأعضاء والأجهزة التى تتكامل لإعطاء الجسم البشرى قدراته على الحركة والاستمتاع بالحياة... كل هذا يتم من خلال برامج علمية متكاملة ووفقا لمعايير وقوانين مازال العلماء يعكفون على دراستها...

قواعد ثابتة يسير عليها ويخضع لها ما نمنيه فى أداء معجز حتى تتكون الخلية الأولى الكاملة وبها النواة الأولى، ثم يتفرع منها هذه البلايين من الخلايا فى رحم الأم لتكون الوليد... قوانين وقواعد سنها الخالق بحكمته لينشأ منها كل إنسان جديد... وكل إنسان ومخلوق على وجه الأرض قد نشأ هكذا بنفس القوانين والقواعد والأسس ودون اختلاف... ألا يدل هذا على وحدانية الخالق... والآن بعد أن رأينا هذا الذى نمنيه... هل نستطيع أن نخلق منى مثل هذا أو نقول أنه قد جاء بغير خالق بحيث يؤدى كل هذه الأدوار ويحتفظ بكل هذه المواصفات والصفات ويسير على هذه القواعد... إن الرجل فى جماعه فى كل مرة يقذف أكثر من بليون خلية حية... أى يمكنه تخصيب عددا من البويضات يعادل عدد سكان الصين أوالهند... أى دقة فى خلق هذا المنى وفى الإشارة إليه بهذا القول السديد والكامل والمعجز... هل لدينا أى فضل فى هذا الخلق وهذه القوانين التى يعمل بها حتى نرد بالنفى على هذا السؤال الربانى: ﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) ﴾... إنه الاحتكام إلى المنطق العلمى فى كل أمور الدين والدنيا ولا شئ سواه... هل يمكن أن يكون لدينا ردا غير التسليم بأنه ليس لنا أى فضل فى خلق هذا المنى، وأن لهذا المنى خالقا واحدا ولهذا جاء تشابه الخلق كلهم فى منيهم وفيما يؤديه... وكيف لا نقر هذا والعلم ما زال يجهل كل أسرار هذه الخلايا التى تستفسر عنها هذه لآية وإن كنا قد رأينا بعض معالمها... وما زال كل يوم يأتى بجديد فى هذه الرؤى.

إننا أمام صرح علمى أرسله الخالق منذ أربعة عشرة قرنا ليدحض ما ادعاه مأفون فى القرن الماضى أن خلية حية بها هذا الإعجاز الذى نراه تحت المجهر قد جاءت بالصدفة، ولجهله لم يكن قد اكتشف المجهر الذى يجعله يرى ما نراه الآن كما يبصرنا الخالق فى هذه الآية بما يمكن أن نراه من إعجاز داخل كل خلية من خلايا مخلوقات الله، فيدعى هذا الأعمى أن خلية واحدة جاءت صدفة فى البداية وأنها قد تطورت من تلقاء

نفسها لينشأ منها سلالات الحشرات والحيوانات والطيور والأسماك، فالزرافة جاءت من الحمار، والنمر جاء من القط، والإنسان جاء فى نهاية هذا التطور من القرد، أى هراء هذا، أولواستمع منشئ هذه النظرية إلى هذه الآية و تدبر فى معانيها ثم رأى منى القط والفأر والإنسان والقرد، لكان قد وجد أن لكل مخلوق من هذه المخلوقات منى خاص به وسجل معنى بتكوينها وصفاتها استقرت معالمه منذ البداية.

كل منى به أعدادا مختلفة من الكروموزومات لكل نوع تحدد الصفات الوراثية والخصائص المحددة لكل مخلوق بحسب هذا النوع، كل حيوان أوحشرة أوطير قد جاء وله تكوينه الخاص بالمهمة التى حددها الخالق له وسخر القوانين الطبيعية التى تحقق له هذه المهمة ، فهل يستطيع هذا المأفون أن يوضح لنا كيف يمكن أن يتطور شكل هذه السجلات بحيث يكون عدد الكروموزومات فى منى القط أقل من عددها فى الفأر رغم أن سلم التطور حسب هذه النظرية يأتى بالفأر قبل القط والإنسان بعد القط... هل ينقص العدد مع التطور أويزداد، وما الذى يمكن أن يغير عدد هذه السجلات وأنواعها فى كل خلية أومنى... كيف تغير الخلية سجلاتها من تلقاء نفسها بحيث تتوافق ما ينتجه كل منى مع الظروف المحيطة به حتى يستطيع الطير أن يسبح فى الهواء والأسماك أن تسبح فى البحار وتتنفس فى الماء والجمل أن يعيش فى جفاف الصحراء ويخزن الماء... إنها بكل منطق جاءت بإرادة خالق هذا المنى بسجلاته... خالق يعلم ما يصنع وينتج من كل منى خلقه بحيث يتوافق ما ينتج منه مع أداء المهمة التى خلق من أجلها... هل هى الأمطار أو الرمال أو العواصف والحرارة والبرودة هى التى صنعت وحددت وسجلت وتراصت واختارت وسنت القوانين التى تحدد كثافة الهواء، بحيث يرفع الطير، وكمية الهواء المذاب فى الماء بحيث تكفى تنفس الأسماك، وحاجة الجمل من الماء بحيث يختزنه أثناء رحلته فى الصحراء... أوجنون صاحب هذه النظرية، هل يستطيع أن يدعى هذا لوكان قد استمع إلى هذه الآية واستطاع أن يأتى

فى عصره بمجهر ليرى إعجاز الخالق فى خلق كل منى كما نراه الآن .. الإجابة معروفة والتفسير الوحيد جاء فى أول هذه الآيات بهذا النص الحق الذى أرسله الله منذ أربعة عشرة قرنا من الزمان : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ و ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

وبعد خلقنا بهذه القدرة وضع الله لنا أقدارنا أيضا التى تحدد متى تنتهى حياة المخلوق الذى جاء من هذا المنى ، وكما نعجز عن أن نأتى بخلية واحدة أوبنصف خلية كالتى نمنيها ، فنحن نعجز بالرغم من تطور علومنا أن نمد أعمارنا ولولحظة واحدة ، فالموت هولحظة قدرها الله لكل منا كما جاء فى استكمال هذه الآية بهذا النص الإلهى المعجز الدال عليه وعلى قدرته : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ، فالذى بيديه الخلق يكون بيديه نهاية مخلوقه ولا أحد سواه يعلم منتهاه ، فقلوبنا تعمل بأمره ، وأرواحنا تستقر بأمره ، ولا أحد له السيطرة على هذا أوذاك أوإذا ما توقف أى شئ بأمره ، عند هذه اللحظة لن يستطيع أحد أن يمد عمره لحظة واحدة إذا جاء أجلها .

وتستكمل الآية بهذا القول الحق : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ ، إنه المنطق العلمى الإلهى الدال على صدق الرسالة ، فقد اكتشفنا كيف جاءت نشأتنا الأولى داخل الأرحام من هذا الانقسام الهائل للخلية الأولى فى نظام دقيق فتتكون الأعضاء والأجهزة والأطراف والعظام والعضلات والحواس والأعصاب من خلية واحدة تكاثرت بهذا النظام بأمر خالقها ... هل يكون من الصعب على خالق نشأتنا الأولى بهذه القدرة والحكمة والعلم أن ينشأ مثلها مرة أخرى أويبدل فى هذه النشأة كيف يشاء ... هل من العسير على خالق الأصل أن ينشأ مثيلا

أوبديلا له مرة أخرى كيف يشاء... هذا ما جاء به قول الحق نبدل أمثالكم وننشأكم فيما لا تعلمون ، إنه الاحتكام إلى المنطق العلمى مرة أخرى لتأكيد وقوفنا فى الآخرة بين يديه... ثم يأتى هذا الاستفسار المنطقى فى نهاية الآية بعد معرفتنا بخلقنا الأول وكيف جاءت نشأتنا بإعجاز خالق واحد قادر: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾.. إنه تعجب منطقى عمن لا يذكر الله دائما بعد رؤية إعجازه فى خلق نشأته الأولى بحيث لا يحتمل سوى رد واحد ... نعم سنتذكر هذه الحقائق دائما يا الله... أنت حقا الإله الخالق الذى خلقتنا والقادر على أن يبعثنا كما نحن وأن تبدلنا كيف تشاء... فلا قدرة سوى قدرتك ولا إله سواك وما نحن إلا مخلوقون ولا خالق إلا أنت تبعثنا بأمرك ومشيئتك كيف تشاء.

ثم نأتى إلى الدليل المادى التالى على أن لنا خالقا... بعد أن خلقنا من منى يمنى فصار نطفة ، أوجد لهذه النطفة أوالطفل الذى يأتى من هذه النطفة الغذاء الذى يحيا به وينمو ، وهذا بما وفره لنا من غذاء يأتى خلقه من عناصر الأرض ومكوناتها... لكن هل نستطيع أن نتناول هذه العناصر مباشرة... كلا... ولكن خالق الإنسان خلق ما يعد له الطعام الذى يغذيه من هذه العناصر... كما جاء فى قول الحق: ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾.. استفسار آخر يعقبه سؤال عمن أعد للإنسان ما يغذيه ... هل هوالإنسان الذى جعل هذه الحبوب التى يضعها أثناء الحرث تنبت زرعا هكذا بهذه الطريقة المرتبة والمعجزة بحيث تعد له حاجته من الطعام والغذاء ووفر فى الأرض العناصر التى تحتاجها هذه الحبوب لتنبت.

إن الإنسان رغم عقله وتدبره واعتقاده بأنه سيد هذا الكون يعجز أن يعد لنفسه طعاما من الأرض بدون هذا الزرع... فهل هوالذى علم البذور أن تأخذ بعض

العناصر أوالأملاح من الأرض ويسر لها الماء لتذيب هذه لأملاح لتعد له حاجته للنمو... لا فضل للإنسان فى كل هذا ودوره يقتصر على إلقاء البذور أثناء حرث الأرض وتقليبها ... وتظل البذور هكذا ساكنة... ثم تنموجميعها فى توقيت واحد فتخترق بزرعها سطح الأرض مرتفعة فى السماء وبجذورها باطن الأرض متغلغلة فى أجوافها وكأنها جميعا على موعد لتقدم للإنسان الخير والغذاء... من أودع فى هذه البذور أوالحبوب تلك القدرة العجيبة فى تحديد الوقت والتعامل مع الزمان... من علمها جميعا وجعلها تنسجم فى نسق واحد لتنمومعا فى كل اتجاه وتخضر أوراقها فى وقت واحد... من أودع فى كل حبة هذه الأسرار بحيث تؤدى كل هذه الأدوار... إننا لونظرنا كما تأمرنا هذه الآية الكريمة إلى الحبوب التى نرميها أثناء الحرث تحت المجهر لرأينا كل العجب... نرى مركزا ضخما للمعلومات مليئا بالشفرات والأوامر المبرمجة داخل حمض نووى عملاق قابع داخل كل حبة يحدد كل ما يتصل بتلك الحبة... كيف تنمو، وإلى أى مدى تنمو، وكم تعطى وما تعطى؟! إننا عندما ننظر إلى ما يخرج من هذه الحبة من زرع يستخرج من الأرض والهواء العناصر المختلفة وفقا لشفراتها المخزونة بحيث تحدد طعم ثمراته ولونها وعددها نقر أن هذا لا يتم إلا بإرادة أسمى وأعلى... إرادة خالق أودع فى كل بذرة هذه السجلات الكاملة لما عليها أن تؤديه حتى يخرج كل نبات بالمحتوى الذى يعطى للإنسان ما يحتاجه لكى ينموولكى يعيش... إن كل زراعة تعد مصنعا كاملا يؤدى أدوارا رائعة رسمت بإتقان وبتدبير خالق الإنسان سبحانه وتعالىٰ الذى يعلم ما يحتاجه لكى يحيا... حقا إن كل نبتة تعد سرا من أسرار الخالق ترى فيها إعجازه ومعجزاته ... ثم إن ما نراه فى هذا النبات من جذور يندفع الماء إليها مذيبا من الأرض بعض العناصر والأملاح التى يحتاجها كل زرع ليعد ما ينتجه ثم نرى كيف يتم دخول هذا الماء إلى جذور النبات بقانون إلهى يسمى قانون الضغط الاسموزى نتيجة لاختلاف نسبة تركيز

بعض العناصر داخل جذور النبات عن نسبتها فى الأرض فتمتص ما رتبه الخالق لها من أملاح وعناصر... ثم كيف تصعد المياه حاملة أملاحها إلى سيقان النبات التى تمتد إلى الهواء، وترتفع المياه فى السيقان داخل أنابيب ضيقة شقها الخالق بحكمته داخل هذه السيقان.

كيف يصعد الماء فى هذه الأنابيب الضيقة عكس اتجاه الجاذبية الأرضية بقانون آخر يسمى قانون الأنابيب الشعرية... ثم كيف تصل المياه إلى فروع النبات الذى يصنع ما يقدمه لنا من ثمار فيها كل ما نبتغيه من وجبات... من شق هذه القنوات وسن هذه القوانين وضبط هذا التركيز وأعد هذه الإنشاءات بحيث تمتد الجذور لتثبته فى الأرض فتصعد بسيقانه فى الهواء حاملة الفروع والأوراق والثمار، من أعد لكل نبات هذا الإعداد بحيث يصبح مصنعا يأخذ من الأرض التى نحرثها منتجا قادرا على غزوالأسواق بمحتوى متكامل من الفيتامينات والبر وتينات والنشويات والطعم المقبول والرائحة الشهية لكل البشر... يغذيهم وينميهم ويقيم أودهم، هل نحن القائمون على أن تأتى زراعته بهذه الحكمة والقوانين وهذا الترتيب والتركيب... إن دقة التوجيه إلى النظر إلى ما نحرثه وهوالحب بأسراره والأرض بعطائها والذين يكونان معا نظاما متكاملا يقوم بكل هذا العمل تحدد الإجابة على هذا السؤال المنطقى: ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾... بحيث لا يكون له له سوى رد واحد... لا فضل لنا فى هذا الزرع إلا فضلك يا الله... ولا مشيئة إلا مشيئتك... ولا قدرة إلا قدرتك... ولا حول ولا قوة إلا بك يا واحد فى سننك... فى كل ما تخرجه الأرض من زرع يسير كله على نهج واحد وبقوانين واحدة وبماء واحد ومن أرض واحدة تسبح جميعها بوحدانيتك .. ثم يأتى البرهان الآخر على أنه لا مشيئة إلا مشيئته إذا ما سلط الله على هذا الزرع مرض أو فطر... أو عاصفة أو حر قائظ... فلا راد لقضائه ولا دافع لنقمته... فيأتى قول القادر لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم

تفكهون... فهل نقدر على إحياء هذا الزرع لومات أوتحطم بفعل الحشرات أوالآفات أوالجفاف أوأمر الله؟! كلا... وسيكون الندم وتأتى الحسرة والاعتراف بالقهر ويظهر العجز البشرى أمام قدرة الخالق عندما نعترف ونقر بهذا القول إنا لمغرمون... بل نحن محرومون... إنه اعتراف بالعجز نقر به دائما عند نزول غضب الله... وهكذا نرى فى هذه الآيات إقراراً بقدرة الخالق على الخلق والفناء، على المنح والمنع، على العطاء والسلب... تأتى بهذا الإعجاز وهذا البيان الذى لا يمكن أن يأتى من أحد سواه فى كلمات محددة أوعت كل المفاهيم بكل العلوم التى ندركها حتى يومنا هذا.

ثم يأتى دليل مادى ومرئى آخر على أننا مخلوقون وأن لنا خالق دبر لنا بحكمته كل شئ... فدبر لنا هذا الماء الذى يعد عماد الحياة على الأرض... فيقول الحق: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾، إنها إشارة إلى الماء وهو سر من أسرار الحياة، هكذا يقر العلم الحديث... فبدون الماء لن يكون هناك أثرا للحياة على الأرض... والكواكب من حولنا خلت من كل حياة لأنها تخلومن الماء الذى أنعم به الخالق على أرضنا... والماء هو الماء فى كل أنحاء الأرض... تتوقف عليه حياة النبات والإنسان والحيوان... إذا امتنع جف النبات ونفق الإنسان والحيوان... من ساوى بين كل المخلوقات فجعل الماء عماد حياتهم جميعهم كما يكون أكثر من ٧٠ ٪ من أجسامهم... يشربه الإنسان فيرتوى والحيوان فينشط ونروى به النبات فينموويعطى الثمار، إنه خالق واحد أحد وفر لجميع مخلوقاته ماءا واحدا فأصبحت له كل هذه الأسرار.. إننا حقا لونظرنا وتدبرنا هذا الماء وأسراره كما تنص هذه الآية القرآنية لأقررنا بوحدانية الله دون دليل آخر... ثم رأينا كيف طوع الخالق هذه الأرض بجوها وطوع السماء بشمسها وحملها وطوع البحار بملحها ومخزونها حتى تكون لنا فى النهاية هذه النعمة التى لا نحيا بدونها... إن البحار تحتفظ بمخزون هائل من الماء

الأجاج أو المالح وهذه الأملاح تمنع نموأى بكتيريا أوطفيل يفسد المياه الراكدة فى البحار... ويسلط الله على هذه البحار التى تغطى أربعة أخماس مساحة سطح الكرة الأرضية قدرا مناسبا من أشعة الشمس... فيتحول جزءا من مياهها إلى بخار الماء العذب الذى يتصاعد إلى طبقات الجوالعليا لأن كثافته أقل من كثافة الهواء الملامس لسطح الأرض... وكلما ارتفعنا إلى أعلى كلما قلت كثافة الهواء... ويقف البخار عند الارتفاع الذى تتزن فيه كثافته مع كثافة الهواء فتتجمع جزيئات البخار مكونه هذا الحجم الهائل من السحب التى تتحرك بفعل الرياح فى اتزان متكامل... ويحدث هذا الاتزان بتساوى قوى الجذب الأرض للسحاب إلى أسفل مع دفع الهواء للسحاب إلى أعلى نتيجة أن كثافة الهواء أكبر من كثافة بخار الماء... لهذا جاء هذا الاسم القرآنى المعجز للسحاب وهو: ﴿ الْمُزْنِ ﴾... إنه إسم يعبر عما تمثله حالة السحب وهى الاتزان الكامل فى سكونها وحركتها... وكما نرى أن هذا الاسم قد استوعب كل هذه المعانى الخاصة بما يعبره عن اتزان السحب بإعجاز علمى وبلاغى... وعند مقابلة هذه السحب لظروف جوية وطبيعية مغايرة تفقد السحب هذا الاتزان فتنتقل من حالة الاتزان إلى حالة لا اتزان فتتحول إلى أمطار... وفى هذا يأتى القول الإلهى بهذا النص القرآنى الكامل:

﴿ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

إنه استفسار عمن يكون قد هيأ لهذا السحاب مصادره واتزانه فى السماء ثم نقله من الاتزان إلى لا اتزان عندما تنزل أمطارا عند مصبات الأنهار أولأقوام أراد الله لهم هذا الرزق .. إنه إعجاز علمى وبلاغى آخر فى اختيار هاتين الكلمتين المتتاليتين: ﴿ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ فيما تمثلانه من انتقال السحاب وخروجه من حالة الاتزان إلى حالة اللا اتزان عند نزول الأمطار، ثم اختيار الكلمتين المزن .. المنزلون وما احتوت عليه من

تشابه حروفهما وتتابع مهامهما .. ولا نجد أيضا ردا على السؤال الذى جاء فى هذه الآية إلا أن نقول : إنه لا فضل لنا أيها الخالق العظيم فى أية مرحلة من مراحل هذا المزن سوى فضلك ، فبرحمتك سلطت أشعة الشمس بقدر معلوم على الماء الأجاج فى البحار فجاء السحاب ... وبفضلك حملته الرياح فى اتزان ... وبفضلك أفقدته هذا الاتزان عند كل مصب اخترته بحكمتك ... وبفضلك أنزلته إلينا أمطارا من ماء عذب تجرى فى أنهار شققتها برحمتك فتظل عذبة سائغة للشاربين من خلقك الذين خلقتهم برحمتك وتعلم ما يقيم حياتهم وأين يقيمون .

ثم يأتى برهان آخر ... فالقادر على منح هذا الماء العذب لنا قادر أيضا على منعه ... إنها مشيئته ولا دخل لأحد بها ... ولكن ماذا يحدث إذا منع عنا هذا الماء العذب ... لن نجد سوى ماء البحار الأجاج ... هل نستطيع أن نحيا به ... الرد معروف ... فملوحة مياه البحار تحول دون استفادة البشر منها ... فهل لنا إلا أن نشكر الله على هذا الفضل الذى تفضل به علينا لنشرب ماءا عذبا ساقه إلينا حتى نرتوى ونروى النبات فنطعم به وتشرب الدواب فتخدمنا ونأكل لحومها .. وفى هذا يأتى هذا النص القرآنى المعبر عن قدرة الخالق ومشيئته فى العطاء والمنع : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ... من يتدبر كلمتى ﴿ جَعَلْنَاهُ ﴾ فى هذه الآية وفى الآية السابقة ، لوجد الحرف (ل) قد سبق هذه الكلمة فى الآية السابقة ولم يأتى سابقا لها فى هذه الآية ... ففى الآية السابقة إشارة إلى أنه إذا أراد الله أن يصيب الزرع سلط عليه ما يبيده فجاء الحرف (ل) ليؤكد مشيئته فى هذا الحرمان بفعل يغاير المألوف وهو المعطى دائما ... أما فى هذه الآية فلا حاجة للتأكيد حيث إن مشيئته تحول الماء الأجاج إلى ماء عذب بفعل الشمس والسحاب المسخرين ، فإذا أوقف الله هذه الأسباب ، فلن نجد أمامنا سوى ماء البحار لنشرب منه ، فلا حاجة إذن فى تأكيد هذا لأن الماء الأجاج أمامنا دواما وعند حرماننا من الماء العذب فلا مفر لنا

من الذهاب إليه ... هل فى قدرة بشر أن يأتى بكل هذه الحكم والبلاغة والعلم فى كل كلمة بل وفى كل حرف.

ثم تتوالى الأدلة على أننا مخلوقون، فقد خلق الله الإنسان على الأرض ليتحرك ويسعى .. وسعيه وحركته فى حاجة إلى طاقة... مثل محرك السيارة الذى لن يتمكن من الحركة دون مصدر للطاقة وهوالوقود الذى يحترق داخل السيارة لتسيير . وبدون أن يكتشف البترول ما كان لأحد أن يخترع السيارة... كيف تم إعداد مصدرا للطاقة لهذا الإنسان الذى جاء إلى الأرض، مصدرا يتناسب مع تكوينه وخلقه وأجهزته المختلفة... لم يكن هناك بترول على الأرض حين جاء إليها أوكحول أو شمع... إن التفسير الوحيد هوأن الخالق الذى خلق الإنسان لابد أنه دبر له مصدرا يستمد منه طاقته... لقد سخر له الشمس لتحترق وترسل أشعتها إلى النبات ليختزنها ثم ليحولها إلى طاقة تنطلق فى أجسامنا عندما نتغذى على ثمار هذا النبات باحتراق يتوارى عن أعيننا وبالقدر الذى نحتاجه للحركة وبآليات تعجز العقول عن فهمها... ولولا الشمس ولولا النبات ولولا حكمة الخالق ما كان للإنسان من سبيل إلى الحركة والسعى والاستمتاع بقوة عضلاته فى الجهاد والسيطرة على الكون من حوله... أى لولا الشجرة التى تختزن طاقة الشمس بعملية تعد من أعقد العمليات تسمى عملية التمثيل الكلوروفيللى حيث يقوم ورق الشجر الأخضر أثناء هذه العملية بتكوين المواد النشوية أوالكربوهيدراتيه التى تمثل وقودا هيدروكربونيا مثل البترول، وهذا بأن يمتص الورق الأخضر أشعة الشمس وثانى أكسيد الكربون من الجووالماء من جذور النبات... ومنها جميعا تتوفر لنا مصادر طاقتنا... وحين نأكل ثمار هذه الأشجار، تحترق المواد النشوية التى تحوى طاقة الشمس داخل خلايا أجسامنا البشرية... فتنطلق هذه الطاقة فى احتراق متوار كما تشير الآية الكريمة بهذا الوصف الكامل: ﴿ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) ﴾ حيث

يستخدم الجسم فى هذا الاحتراق الأكسيجين الذى يحمله الدم من الرئة إلى الخلايا، وتعد عملية احتراق المواد الكربوهيدراتية داخل الخلايا من أعقد العمليات التى يحار العقل البشرى فى فهمها والتى تحتاج إلى مجلدات لسرد تفاعلاتها... ولكنه احتراق كأى احتراق يستخدم فيه أكسيجين الهواء وينتج عنه الطاقة وثانى أكسيد الكربون وبخار الماء... وبهذه الطاقة تتمكن خلايا الجسم من أداء وظائفها ويتمكن الإنسان من الحركة والاستمتاع بحياته وعضلاته وقوته... هل للإنسان فضل فى هذه الشجرة التى صنعت للإنسان حاجته من الطاقة ليحيا... وهل يعى الإنسان ما بداخله من نيران تتوارى عن العيون كتلك التى تنطلق داخل محرك السيارة.

كل هذا جاء فى هذا الاستفسار الإلهى :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) ﴾... هل لنا ردا أيضا على هذا الاستفسار ثم هذا السؤال إلا أن نقول أنه لا يمكن أن يكون هناك فضلا لنا فى شئ من هذا سوى أنه تدبيرك أيها الخالق الواحد وأن هذا خلقك وصناعتك وترتيبك الشاهد على وحدانيتك، فالكل يسير على نفس الناموس... وإذا نظرنا إلى كل كلمة سنجد فيها إشارات إلى أشياء ندرك البعض منها بعلومنا المحدودة ويغيب عنا الكثير... ننظر إلى كلمتى ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ ﴾ و ﴿ تُورُونَ ﴾ والأولى تدعونا إلى أن نرى حكمة الخالق فى النار التى هى مصدر الطاقة فى أجسامنا والثانية تدلنا أن هذه النار قد واراها الخالق عن عيوننا ولكن نشعر بدفء نيرانها والقدرة على الحركة... وكلمة ﴿ تَذْكِرَةً ﴾ قد ترمز إلى وجوب تذكر عظمة الخالق فى تسخير هذه الشجرة لتخزن لنا كل هذه الطاقة وفيما دبره بحيث تنطلق هذه الطاقة داخل أجسامنا دون أن تراها عيوننا... وكلمتى ﴿ مَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ إشارة إلى أننا استطعنا بهذه الطاقة أن

نستمتع بقوة عضلاتنا وأجسامنا وبدونها لن تكون لنا أية قدرة على شئ... إن هذه الكلمات المحددة قد أوعت كل ما اكتشفناه، وستستوعب أيضا ما لم نكتشفه من علوم الطاقة والاحتراق والنبات والطب والإنسان والبيان والبلاغة والإعجاز إذا ما تولى المتخصص المدرك لكل جانب من جوانب هذا الإعجاز... هل يمكن أن يتأتى كل هذا البيان من غير الخالق الذى يعلم كل شئ ؟؟؟

تعالوا ننظر نظرة شاملة إلى هذا المنهج الربانى الذى يخاطب البشر منذ أربعة عشر قرنا بأرقى ما يمكن أن تصل ليه علومهم ليؤكد أنه خالقهم ومدبر أمرهم ويحدد لهم بعض الآليات التى أوجدها بعلمه ورحمته حتى نحيا على هذه الأرض بمشيئته... لقد بدأت هذه لآيات بالدعوة إلى رؤية هذا الحيوان المنوى الذى يبدأ به خلق كل إنسان وتكوينه... فلا قدرة لأحد بعد أن رأيناه فى أن يدعى أنه جاء بغير خالق أوأن لنا أى فضل فى خلقه بهذا الإعجاز... ثم تأتى الدعوة إلى رؤية ما يتغذى عليه الإنسان لكى ينمو ويمارس شئون حياته... ولا قدرة لأحد أيضا على ادعاء أن هذا الزرع قد جاء بغير خالق بحيث يوفر ما يتوافق مع تكوين وتصميم هذا الإنسان... أوأن الذى خلق الإنسان ليس هوالذى خلق هذا الزرع لينموبه وليعتمد عليه بحيث لا تستمر الحياة إلا به.

ثم نأتى إلى الآية التالية وفيها الدعوة إلى رؤية الماء الذى يسقى النبات والإنسان وفيه سر الحياة واستمرارها... لا قدرة لأحد أيضا على ادعاء أنه جاء بغير خالق أوأن الذى خلق الإنسان والنبات ليس هوأيضا الذى دبر لهما هذا الماء بدورته المعقدة من مخازن تحفظه إلى أنهار يسوقها الخالق إليه فى أماكنه بحيث يكون بهذه الوفرة وهذا التكوين... ثم نأتى إلى دعوة الخالق إلى رؤية الطاقة التى يحتاجها الإنسان... ولا قدرة لأحد أيضا على ادعاء أنها دبرت هكذا بدون خالق أوأن الذى دبرها ليس هوالذى خلق الإنسان ودبر له هذا العطاء وهذا المعين الذى لا ينضب من

الطاقة ومصادرها الطبيعية من شمس وخصائص .. إذا نحن مخلوقون ومدبر لنا كل شئ بيد خالق واحد رتب لنا كل شئ... بدايتنا وغذائنا ومائنا ومصدر طاقتنا فى دورة وحد ذات أركان متصلة... وأن ليس لنا فضل فى أى من هذه الأمور سوى حرث الأرض ببذورها، ولكن المنى والماء والنماء والطاقة كلها من أمور وشئون الخالق وحده فى منحها ومنعها كما تبينه هذه الآيات... هل هناك منطق يحتكم إليه العقل البشرى أعلى من هذا المنطق حتى نقر بخالقنا أوأن لنا خالق واحد أحد... وهل لنا بعد هذا المنطق وهذه الرسالة إلا أن نقر بآيات القرآن ونسبح بعظمة منزلها... وهكذا تنتهى هذه الآيات أوالإثباتات والدلالات أوالاستفسارات الأربع بوجوب هذا التسليم والتسبيح لرب العالمين الخالق العظيم.

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾.

... إنه إعلان ربانى لا يتطاول إليه أحد، جاء فى ختام الرسالات ولن تراه فى زبور أوتوراة أوإنجيل أوأى كتاب، إن المسلم حين ينحنى أمام الله فى ركوعه أثناء صلاته ويقول سبحان ربى العظيم، عليه أن يستشعر عظمة الله التى جاءت بها هذه الآيات ، فهومنشئه من منى معجز ومقدر حياته وموته، وهو الذى هيأ له طعامه من حبوب وضع أسرارها، وأرض سن لها قوانينها ، وهوالذى وفر له هذا الماء العذب بعد رحلة دبرها بقدرته وحكمته، وهوالذى وفر له الطاقة التى يحتاجها ليستمتع بقوته... هوالواجد لكل هذا وما لنا فى كل هذا التدبير من شئ... ثم هوالقادر على حرمانه من كل هذا... فلهذا يقول بكل الإيمان والعلم... سبحان ربى العظيم.

ويلى هذه الآيات قسم من الخالق بما نراه فى خلقه أيضا على صدق هذه الرسالة وأن هذا الكتاب قد جاء من عنده بقول الحق :

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ

كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

نقف عند قسم الخالق بمواقع النجوم، فالنجوم أجسام غازية تجرى بها تفاعلات شتى منذ نشأتها من إشعاع يتحول إلى مادة أومادة تتحول إلى طاقة وإشعاع بحسب مراحل عمرها وتكوينها... وتقف العلوم الطبيعية عاجزة عن معرفة وتفسير نشأة هذه النجوم إلا أنه من المفترض أن يكون لهذه النجوم عند نضجها نفس تكوين الشمس من غاز الهيدروجين... وفى مرحلة نشاط النجم تنطلق منه طاقة هائلة حيث يحدث اندماج ذرات الهيدروجين لتكون ذرات غاز الهليوم الخامل ذوالكتلة الأقل ويتحول فرق الكتلة إلى تلك الطاقة الهائلة التى تظهر النجم مضيئا رغم بعده السحيق عنا... وتأخذ كتلة النجم فى التناقص حتى يتلاشى وينتهى النجم بعد عمر محدود... وفى الكون الآن بلايين البلايين من هذه النجوم التى قد يصل حجم بعضها إلى ملايين المرات مثل حجم الشمس وهى نجم مجموعتنا التى ندور حولها وتعطينا دفئها... وتعتمد رؤيتنا ليلا لهذه النجوم على الطاقة الصادرة منها والتى تصل إلينا على هيئة ضوء يخترق السماء بسرعته... كما نرى الشمس نهارا بالضوء الصادر منها والذى يستغرق وصوله إلينا من الشمس عشر دقائق... ولأن النجوم من حولنا أبعد كثيرا من الشمس، فنرى أن ضوءها يستغرق زمنا أكثر من هذا ونجد أقرب نجم إلينا يستغرق وصول ضوءه إلينا عدة سنوات، وهناك نجوم يستغرق وصول ضوءها إلينا ملايين من السنوات، بل وآلاف الملايين من السنوات، هذا لأنها على أبعاد شاسعة وأن الضوء سرعته محدودة وتقدر بحوالى ٣٠٠ ألف كيلومتر فى الثانية الواحدة... والآن ما معنى أن الضوء الصادر من نجم ما يستغرق وصوله إلينا سنة... معنى هذا أن هذا النجم يبعد عنا مسافة تساوى هذه

السرعة مضروبة فى عدد الثوانى فى السنة أى : (٣٠٠ ألف كيلومتر X ٣٦٥ X ٢٤ X ٦٠ X ٦٠) ... ويطلق العلماء على هذه المسافة تعبير (سنة ضوئية) ... فمعنى أن يبعد النجم عنا مليون سنة ضوئية هو أن هذا النجم كان فى هذا الموقع منذ مليون عام عندما أرسل إلينا ضوءه واستغرق الضوء هذه الفترة ليصل إلى عيوننا ... أما عن موقع النجم فى اللحظة التى وصل ضوءه إلينا فلن تصل إليه علومنا وقدراتنا ... وهناك نجوم يستغرق وصول ضوءها بلايين السنين ... فلا قبل لنا أن نعرف مواقع هذه النجوم بالنسبة لبعضها لأن رؤيتنا لها تعتمد على ما وصلنا الآن كل بحسب بعده وتوقيت إرسال ضوئه إلينا وإن تزامن وصول ضيائها جميعا إلينا فى اللحظة الراهنة ... ومن الممكن أن تكون معظم هذه النجوم قد تلاشت أو تبدلت أو بعدت أو اقتربت ... ولكن قدرتنا محدودة لاعتمادنا على ما تراه أبصارنا على ضوء يسير بسرعة محددة .

إن معرفة مواقع النجوم فى أية لحظة وهى على هذه المسافات الشاسعة والمختلفة شئ بعيد عن قدرة البشر ، ولهذا جاء الحرف ﴿ لو ﴾ للدلالة على قصور قدرة البشر عن العلم بمواقع النجوم وهذا فى قوله سبحانه ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ ... فالحرف لو هو حرف يفيد التمنى فقط وقد جاء بعلم خالق الإنسان الذى يعرف خلقه ... فهى تمثل بالنسبة للإنسان الغيب والحاضر فى آن واحد ... ولكن الله يرى خلقه ولهذا يقسم بما يعلمه وهو أعلم بعظمته ... فهو عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم .

إن التدبر فى هذا القسم وبحدود ما وصلت إليه علومنا فى التعرف إلى بعض الأسرار فى هذا الكون ... نجد فى مواقع النجوم على تلك الأبعاد الشاسعة التى لا يمكن أن يعيها أو يستوعبها عقل البشر إعجازاً وإعجاز ... وكيف يستوعب العقل

بلايين السنوات الضوئية زمنا وأبعادا... إن أعمارنا بل وعمر الأرض التى نحيا عليها ثم أبعادنا بل وأبعاد الأرض التى نحيا عليها ونتصارع من أجل بضعة أمتار عليها لا تمثل إلا أتفه الكسور التى لا تذكر من تلك الأبعاد والأزمان... ثم كيف تنتظم هذه النجوم فى هذا الشكل البديع الذى نراه فى هذا الكون فيخيل لنا أننا نراها هادئة مستقرة متراصة وحقيقتها لا يعلمها أحد إلا خالقها... من منها انتقل من أقصى الشرق إلى الغرب، ومن منها انتهى عمره فتبدد، ومن منها اصطدم بغيره فتوالد عنهما نجوم أخرى وكواكب ومذنبات وأعاصير كونيه لا نعلم عنها شيئا... لهذا جاء هذا القسم الإلهى ليدلنا على صدق المقسوم به كما يضعنا أمام حقيقة أننا بعلومنا قاصرين عن أن نعرف كل شئ... ولهذا وجب علينا التسليم فيما لا تستطيع أن تستوعبه أبصارنا وعقولنا لقول الله الذى يأتى فى الآيات التالية بأمور غيبية عن الروح والجنة والنار... هذا القرآن جاء تنزيل ممن سبق علمه ورؤيته كل العلوم والأزمان والأكوان... لمن هم قاصرين فى علومهم ورؤيتهم ومحدودين بزمانهم وأبعادهم وقدراتهم حتى يتيقنوا من هذا البيان.

والآن، هل نستطيع بعد أن وصلت علومنا إلى ما وصلت إليه، أن نأتى بكلمات مثل هذه الكلمات الواضحة فى إشاراتها وتعبيرها وعلمها وشمولها وبساطتها ومغزاها ومنطقها وبيانها وبلاغتها وقوتها وترتيبها بحيث يفهمها الجميع ويؤمن بها الجميع... على تفاوت علومهم ومداركهم وتخصصاتهم وعصورهم... الإجابة معروفة.

﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾